شهادات

تحاول الشهادات التي استقتها (الجريدة الأخرى) من عدة شخصيات عاصرت الملك الراحل أن ترسم صورة مقربة للملك الذي حكم المغرب أطول فترة تاريخية بعد جده المولى إسماعيل. وقد توخينا أن تكون هذه الشهادات من شخصيات كانت قريبة من الملك الراحل أو من كبار مساعديه ومن وزرائه ومن مؤنسه الخاص وممن أتيحت لهم الفرصة للاقتراب منه، كما شملت الشهادات تلك التي أدلى بها مقربون من الملك الراحل بحكم علاقة الدم كما هو الشأن مع شهادة الأمير مولاي هشام ابن الأمير مولاي عبد الله شقيق الحسن الثاني. وفي جانب من هذه الشهادات حاولنا أن نقدم رؤية الآخر خاصة من خلال كتابات وشهادات الصحفيين الأجانب الذين أتيحت لهم الفرصة أكثر من زملائهم المغاربة لمعرفة الملك الراحل عن كتب. وفي جانب آخر ورغم أن هذا لم يكن موضوع هذا الملف الذي نريده أن يكون توثيقيا قبل أن يكون تقييميا لعهد الحسن الثاني سألنا الناطق الرسمي باسم "العدل والإحسان" فتح الله أرسلان لمعرفة التصور الذي كان عن الجماعة التي ظلت تعارض الحسن الثاني ومازالت..

الأمير مولاي هشام:

الحسن الثاني لم يكن ديمقراطيا لكنه كان يعرف قيمة الحرية

لم أر في حياتي شخصية تترك انطباعات مختلفة حد التناقض لدى الناس، مثل الملك الراحل الحسن الثاني، إذ كان بمقدوره أن يكون محبوبا ويحظى بالكثير من الإعجاب والتقدير، وفي الوقت نفسه كان بمستطاعه أن يكون قاسيا وشديد الصرامة إلى حد إثارة الخوف الشديد لدى المحيطين به.

هذا راجع في تقديري إلى طبيعة شخصيته من جهة، والى التجربة والتربية التي تلقاها في مرحلة دقيقة من تاريخ المغرب، حكم الحسن الثاني مر بعدة مراحل، في بدايته كان حاكما يبحث عن الاعتراف العادي والبسيط، و أصبح عنيدا عندما لم يعط هذا الاعتراف من قبل الشركاء الآخرين. وكان هاجسه في ذلك سيرة

والده والهيبة المعنوية التي كان يتمتع بها محمد الخامس، لكن بعد المسيرة الخضراء وبعد توطيد دعائم ملكه خرج من القبضة العاطفية والنفسية لوالده، فأصبح نمط حكمه عند عدد من الدارسين يتراوح بين الاستبداد الشرقي والحكم المطلق الذي يميل أكثر إلى القيصر الروماني منه إلى الملك الأوربي... أتساءل هل كنا سنعيش هذه المرحلة لو أعطي الملك حق الاعتراف به كملك للبلاد وتجنب التشكيك في شرعيته وكفاءته وصلاحياته. ثم تميزت الفترة الأخيرة من حكمه بمحاولات حثيثة لإرجاع القاطرة إلى سكتها الطبيعية ومع هذه التقلبات كان محيطه العائلي يعاني من تداعياتها.

أنا شخصيا كانت تربطني به علاقة متعددة الأبعاد، ففي صغري كنت أحس به كعم إلى فترة العشرينيات، بعد ذلك، أصبح ملكا ورئيس الدولة. فاختفت صورة العلاقة الأولى، ولم ترجع إلا في أواخر حياته، حيث أتيحت لي فرصة اكتشاف شخصية العم مرة ثانية.

كان في بعض الأحيان يختار المواجهة المباشرة، وفي مرة ثانية كان يختار التجاهل و الإهمال التام، وعندما تزداد الشدة يستعمل آليات العزل والمقاطعة وتشديد الخناق... وأنا شخصيا عشت هذه الحالة، حيث لم أجد أي أحد يبتسم في وجهي من الحارس إلى الوزير عندما أكون على خلاف معه، ومرة بالذات وصل غضب الملك معي أنه نهر كلبه الذي كان يستقبلني بفرح، تعبيرا عن الغضب الشديد . . .

لكن مع الحسن الثاني مهما طالت الأزمة فان المصالحة تعقبها، لأنه كان دائما مصرا على بقاء شعرة معاوية مع الجميع، مهما كانت طبيعة المخاطب أكان هواري بومديان أو نوبير الأموي، أو عبد الرحيم بوعبيد، الحالة الوحيدة التي كانت تشد عن القاعدة حسب ظني كانت حالة إبراهام السرفاتي دون أن أجد لها تفسيرا . . .

للحفاظ على ما كان يعتقد انه نقاء ايديلوجي كان يرفض استدعائي لإلقاء محاضرات في أمريكا، إذ كانت سفارات المغرب تقدم احتجاجات رسمية لدى المؤسسات التي كانت توجه الدعوة إلي، وكان يغضب مني لعدة أشهر عندما ألقي محاضرة أو أعبر عن رأي يختلف مع الموقف الرسمي، وفي الوقت نفسه عندما كانت الفرصة تسنح له في بعض ندواته الصحفية، كان يرد على بعض الأفكار التي كنت أدلي بها في بعض المحاضرات، بطريقة غير مباشرة. ثم يلتفت إلي بعد انتهاء الندوة الصحفية ليتأكد إن كانت رسالته قد وصلت أم لا.

مرة اشتكى الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات إلى الحسن الثاني من أنني أنتقده بشدة في مداخلاتي وكتاباتي في أمريكا وأوربا، فرد عليه الحسن الثاني بالقول: "من الأفضل أن يكتب عنك وأن ينتقدك من أن يفعل الشيء نفسه معي...".
كان دهاؤه السياسي يقوده لاستعمال النكتة للخروج من الأوضاع المشحونة نفسيا وسياسيا.

مرة كنت مع الملك الراحل في فندق "كريون" في باريس سنة 1989 إبان أحداث رومانيا التي ستنتهي بالإطاحة بالديكتاتور تشاوسسكو، كنت في قاعة بالفندق ومعي عدد من المرافقين له نتابع الأحداث عبر شاشة التلفزيون وكان الحسن الثاني كلما دخل إلى الغرفة يعمد إلى تغيير القناة لكي لا نتابع أحداث الثورة على تشاوسسكو، وبمجرد ما يخرج كنت أرجع إلى نفس القناة، فيعمد هو إلى تغييرها عدة مرات، وفي الأخير نادى علي وقال:"إن مثل هذا لن يقع أبدا في تواركة، لماذا تصر على أن تخيف مرافقي بأحداث أوربية لن تقع أبدا في المغرب؟".

كان الراحل الحسن الثاني بصفته رجل دولة يعرف كل الإيديولوجيات والبدائل السياسية التي كانت موجودة في عصره، كان يعرف الشيوعية فلسفة وسياسة، وكان على اطلاع جيد بالرأسمالية. أما الإسلام، فإن درايته به كانت واسعة وعميقة.

الشيء نفسه بالنسبة لنظم الحكم، كان يعرف ما هي الديمقراطية وما هي الدكتاتورية، وما هي الحداثة وكيف هو شكل ومضمون التقليد.

الحكم على نظامه، أو تقييم فترة حكمه مسألة صعبة وتحتاج إلى دراسة تاريخية، فالملك الراحل كان إنسانا برغماتيا، لم يؤمن بالديمقراطية كأداة لبناء الشرعية، فهذه الأخيرة ليس لها سوى منبع تقليدي، وفي الوقت نفسه كان يعرف أكثر من أي رئيس دولة في العالم العربي تعطش الناس للحرية والتعددية.

كان الراحل الحسن الثاني بارعا في قراءة التحولات الداخلية والخارجية، وكانت له قدرة فائقة على التأقلم مع الأوضاع المستجدة، كما كان مقتدرا في الحفاظ على لعبة التوازنات وعندما كان يحس أن وضعا معينا يحتاج إلى تصحيح كان يشرع في التهييء للوضع الجديد حتى يتجنب المفاجآت، ولكن أظن أن هذا الأسلوب كان مطبوعا باحتياطات تستهلك الكثير من الوقت والجهد الذي يؤثر على معنويات الآخرين، فمع الخصوم كان في الأمر دهاء كبير، لكن مع الشركاء كان الأمر مكلفا جدا.

كان رحمه الله مقتنعا في آخر حياته أن المغرب في حاجة ماسة للديمقراطية ولنظام جديد، ولكن كان ينتابه قلق إزاء عدم قدرته على انجاز المهمة كاملة، ولهذا انفتح على كفاءات و أطراف سياسية أخرى ... إن إحساسي الشخصي أن مشروع التناوب السياسي الذي جمعه مع السيد عبد الرحمان اليوسفي لم يكن خدعة أو مناورة من قبله، بل كان قناعة حقيقية من لدن الراحل، ولكن للأسف أوضاعه الصحية خانته.

كنت اعتقد أن الحكم على عهده مرتبط بمستقبل الملكية من بعده، ولكن بعد مرور ست سنوات على رحيله، يمكن أن أقول اليوم ان مكانته أصبحت محفوظة وسط رموز الملوك العلويين. لأن مستقبل المؤسسة الملكية مرهون بأدائها وتطوراتها لا بتركة أحد مؤسسيها... وهنا يلتقي رأيي مع رأي عبد الله العروي في كتابه الأخير عن مغرب الحسن الثاني.

إن أكبر ميزة كانت لدى الراحل الحسن الثاني هي حبه لبلده، وهو حب قد يبدو لهذا الجيل شيئا غير مفهوم أو مسألة غريبة، وأظن انه يتشارك في هذا الإحساس مع الراحل الشيخ زايد ابن سلطان والملك الراحل الحسين بن طلال وقادة آخرين في الشرق والغرب.

أما ما يمكن أن يؤاخذ عليه، فهو حساسيته للنقد وتشبثه بالرأي حد العناد، الذي قد يقود إلى الانغلاق ورفض الآراء الأخرى. وفي آخر حياته كان يعرف أن الملف الاجتماعي وتركة حقوق الإنسان كانا يشكلان عبئا عليه، ولكنه كان يعتبر أنه ترك للمغرب دولة وإدارة، وموقعا دوليا لمواجهة التحديات القادمة. لقد كان إنسانا شجاعا، واجه المرض بإيمان عميق ونبل كبير.

أنا شخصيا أرى أن تقييم عهده سيتم عندما تتضح الصورة ونخرج من التوظيف السياسوي لعهده ... عندما يجلس المؤرخون بكل أمانة علمية وبعيدا عن مهاجمة مرحلة لبناء أخرى، وبعيدا عن القراءات ذات الدوافع الضيقة والمتعلقة بالاستغلال السياسي إذ ذاك ستقرأ الأجيال المقبلة حقيقة الملك الراحل بكل جوانبها الإيجابية والسلبية، حينما تتحرر العقول وليس فقط الألسن، وفي كل الأحوال فإن التاريخ سيعترف أن الملك الراحل كان رجل دولة بامتياز.